ادب عربی، سال ۱۳، شمارهٔ ۲، تابستان ۱۴۰۰
10.22059/jalit.2020.211947.611507
Print ISSN: 2382-9850//Online ISSN: 2676-7627
http://jalit.ut.ac.ir

Pre-Islamic Women in Tribal Wars

Mostafa Shiravi-khouzani *
Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, University of Qom, Iran
Mahdi Naseri
Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, University of Qom, Iran
Tawfiq Bavi
Master's Graduate in Arabic Language and Literature, University of Qom, Iran

Received: July 24, 2016; Accepted: April 24, 2020

Abstract

Frequent tribal wars are a fact that cannot be denied or overlooked, and the effects of these wars on human society as a whole, and women in particular, should be taken into consideration. Pre-Islamic society was itself an oppressor of women in different ways, including disastrous tribal wars that brought for woman only misfortunes. Since wars were, and still are, harmful to all aspects of human life, and women's in particular, identifying the effects of those old wars on women is necessary. Thus, this article reviews the status of women in pre-Islamic wars and literary books on women in three stages, before the war, during the war, and after the war. It studies the impact of these wars on women's living, psychological, and rational conditions. Tribal wars were a curse on women, and while wars would last, the women's woes would be more and more. The pre-Islamic woman, like any other human being, instinctly did not like wars, and she knew that she was the first victim and the main target in wars. She was the one to suffer, to become a widow, and to lose loved ones. Women's motivations for inciting wars were taking revenge, high values, gaining booty. Yet what they really faced was different for during the war they would have fear of captivity and would have to feed war horses and treat the wounded, and after the war they would escape, become captives, face an unknown destiny, be assaulted, become widows, and mourn their loved ones.

Keywords: Pre-Islamic women, Tribal wars, Pre-Islamic poetry, Effects of war.

*. Corrresponding author: m.shiravi@qom.ac.ir

المرأة الجاهلية والحروب القبلية

مصطفى شيروى خوزانى*
أستاذ مشارک في فرع اللغة العربية وآدابها، جامعة قم، إيران
مهدى ناصرى
أستاذ مشارک في فرع اللغة العربية وآدابها، جامعة قم، إيران
توفيق باوى
خريج ماجستير في فرع اللغة العربية وآدابها، جامعة قم، إيران

صص ۴۷-۶۸
تاريخ الاستلام: ۱۳۹۵/۰۵/۰۳ هـ.ش، تاريخ القبول: ۱۳۹۹/۰۲/۰۵ هـ.ش

الملخص

إنّ كثرة الحروب القبلية هي حقيقة لا تُنكر، والآثار التي تُخلّفها هذه الحروب على المجتمع الإنساني عامّة، والمرأة خاصة، لا يمكن إغفالها. فلم تحبُّ المرأةُ الجاهلية –ككل إنسان آخر– الحربَ فطرةً، ولكنّها كانت مُكرهةً عليها، وكانت تعلم أنّها الضحية الأولى، والمستهدفة الرئيسية، فهي الّتي ستُسبى، أو تُرمّل إن قُتلَ زوجُها، وهي الّتي عليها البكاء، واللّطم، والنّياح، والحِداد بسبب فقدان الأحبّة. المرأةُ الجاهلية كانت تَرَى نفسها ضحيةً لحروبٍ يبعثُها الرّجال، ومن يتضررُ منها، هي وأولادها، وليس لها إلّا الصبرُ على مصائب يجلِبونها لها. فأما المجتمع الجاهلي فكان بحدّ ذاته ظالماً للمرأة بأشكال مختلفة، وأهمها هي الحروب القبلية الكارثية التي لا تجرّ معها للمرأة إلّا المصائب. ومع أنّ المرأة كانت مكرهة للحرب، إلا أنها كانت ملحّة، ولجوجةً في الحثّ عليها، وبالنظرة الأولى يتبادرُ للأذهان أنّ المرأة كانت تحبُّ الحربَ وتحثُّ عليها، ولكنّ هُناك أسباباً عِدّة تجُرُّ المرأةَ إلى هذا العناد، واللّجاج، منها؛ فقدان الأعزة، ولا سيّما الزوج، والإخوة، والأولاد، ولكي لا تُسبى، ودوافع أخرى التي نذكرها في هذا المقال. على كل حال بما أنّ الحروب كانت تضرّ بجميع جوانب الحياة الإنسانية، والمرأة خاصة، فالتعرّف على آثار تلك الحروب القديمة على المرأة شيءٌ يستحقّ الدراسة والبحث. فانطلاقا من ذلک تعرّضت هذه المقالة، على أساس المنهج الوصفي– التحليلي، لحالة المرأة الجاهلية في الحروب القبلية فتناولت الدواوين الشعرية الجاهلية، والكتب الأدبية التي حملت في طيّاتها أبياتاً عن المرأة في ثلاث مراحل: أ. قبل الحرب (ومنها: كراهية الحرب عند المرأة، ودوافع المرأة للحث على الحرب، وأخذ الثأر و...) ب. أثناء الحرب (ومنها: الخوف من السبي، والخطابة الحربية، وإطعام الخيل و...). ج. بعد الحرب والآثار التي تُخلّفُها هذه الحروب على حياتها المعيشية، والنفسية، والعقلانية، حيث تمّ استنتاج هذه الآثار من الوقائع، والحوادث التي ذكرها الشعراء في أشعارهم. وَأخيرا تَبيَّنَ أنَّ على الرّغم مِن كراهية المرأة للحرب، إلا أنها كانت عنيدةً، ولجوجةً في الحثّ عليها، فَمِن أبرَز دوافع عناد المرأة، وحثّها الرّجال على الحرب: أخذ الثأر والانتقام، وفقدان الأعزة، ولا سيّما الزوج، والإخوة، والأولاد، وأحياناً من أجل اكتسابِ الغنائم.

الكلمات المفتاحية: المرأة الجاهلية، الحروب القبلية، الشعر الجاهلي، آثار الحروب.

*. الكاتب المسئول: m.shiravi.qom.ac.ir

١. المقدّمة

بما أنّ المرأة هي نصف المجتمع، فالبحث في ما حصل لها، وما تعرّضت له على مرّ العصور، وفي المجتمعات المختلفة يُعيننا لكشف شخصيتها، وأفكارها، وأمانيها، كما يساعدنا لمعاملتها الصحيحة، ومساعدتها في الحصول على حقوقها المهضومة في المستقبل. وبما أنّ الحروب كانت تضرّ بالمجتمع الإنساني عامّة، والمرأة خاصة، فالتعرّف على آثار تلك الحروب القديمة على المرأة شيء يستحقّ دراسة مستفيضة. فمن هنا نجد من الضروري القيامَ بملء الفراغات في هذا المجال حيث تتعرّض هذه المقالة لمكانة المرأة في الحروب الجاهلية وآثار هذه الحروب على حياتها المعيشية، والنفسية، والعقلانية، حيث تُستنتج هذه الآثار من الوقائع، والحوادث التي ذكرها الشعراء في أشعارهم، ولاغير. فلا يشمل البحثُ الكتبَ، والنظرةَ التاريخية للمرأة، ولا القصص، والأمثال، وما شابه ذلك. وبما أنّ الشعراء في ذلك العصر سجّلوا أكثر الحوادث، والوقائع، فهم خيرُ مرشدٍ لنا لمعرفة مكانة المرأة، وما حصل لها من سلبيات، وإيجابيات في تلك الحروب، التي سُمّيت بالأيام. أما المنهج المتّبع فى هذا البحث فهو المنهج الوصفي التحليلي لتتناول حياة المرأة في الحروب الجاهلية. وفيما يخصّ بخلفية البحث فحسب المطالعة في الكتب، والمقالات الأدبية التي استطعنا الحصول عليها، وجدنا أنّ هناك كثيرين قد درسوا موضوع الحرب فى الشعر الجاهلي كما أنّ هناك دراسات كثيرة مستقلة فى الجوانب المختلفة من أيام العرب إلا أنهم لم يدرسوه من منظار مكانة المرأة في الحروب الجاهلية فلا يوجد دراسة، أو بحث يشابه موضوع هذه المقالة بالضبط، فبعد قراءة العشرات من الكتب الأدبية لم نرَ من المؤلفين مَن ألّف كتاباً، أو أفرد باباً لحالة المرأة في الحروب الجاهلية يعين الشعراء، والأدباء، بل كلّ ما هنالك هو ذكر الوقائع التي مرّت بها المرأة، وما حدث لها. ولم نشاهد من يحلّل تلك الأحداث، أو ينظر إليها نظرةً خاصةً، لصلتها بحياة المرأة. قد تُعدّ مقالة "الحروب في الجاهلية" لمحمد الناصر (مجلة البيان، لندن، ١٤٠٦ق) أقرب تأليف، من بين البحوث التي عثرنا عليه، لموضوعنا في هذه المقالة. يتناول محمد ناصر الحروب في الجاهلية أسباب هذه الحروب والدوافع الكامنة وراء قيامها ثمّ يشير إلى أنّ الصلات القبلية في الجاهلية كانت قد أسست على العداء والحروب المتوالية، أو على المحالفة والنصرة، ذاكرا أنّ الاختلاف على الماء والمرعى بسبب جفاف الصحراء وقلة الموارد من أهم أسباب الحروب في العصر الجاهلي، كما حصل في يوم سفوان عندما التقى بنو مازن وبنو شيبان على ماء يقال له سفوان فزعمت كل قبيلة أنه لها. كما قد تشتعل الحرب رغبة في السلب والغارة؛ لأن هؤلاء الغزاة جعلوا أرزاقهم

في رماحهم. ثمّ أخيرا يتعرّض محمد ناصر في هذه المقالة للحروب الطاحنة وأثرها على موضوعات الشعر.

وأمّا من سائر الدراسات التي أُلِّفت عن الحروب الجاهلية عامّة، فمنها: مقالة "الحرب عند القبائل العربية في الجاهلية" لصالح موسى درادكة (مجلة المؤرخ العربي، بغداد، ١٤٠٦ق)؛ ومقالة "يوم الرزم، آخر أيام العرب في الجاهلية" للوداعي (مجلة العرب، الرياض، ١٤١٩ق)؛ وكتاب"أيام العرب في الجاهلية" بقلم جاد المولى والبجاوي وأبوالفضل إبراهيم. فيبدو من ملاحظة خلفية البحث، أنه لم يحظ موضوع "المرأة في الحروب الجاهلية" بدراسة وافية، وهذا ما يبرّر ضرورة معالجة هذا الموضوع ببحث علمي جديد.

فمن منطلق ذلك تهدف هذه المقالة إلى إلقاء الضوء على أثر ويلات الحروب على المرأة في الشعر الجاهلي. وأما أسلوبنا في البحث وما تطرقنا إليه في هذه المقالة يختلف عن غيره من المقالات، وهو نتاج البحث في العشرات من الدواوين الشعرية الجاهلية، والكتب الأدبية التي حملت في طياتها أبياتاً عن المرأة في الحروب، أو ما بعدها. وبعد الحصول على هذه الأبيات المتناثرة في الكتب، قسّمناها إلى ثلاثة أقسام: أبيات تتحدث عن الاحداث قبل الحرب، أبيات تتعرض لما حدث أثناء الحرب وأخيرا أبيات تذكر أحداث مابعد الحرب.

٢. مصائب الحرب والحفاظ على النساء

كانت الحروبُ القَبليةُ نقمةً على المرأة؛ بدايتها، وأثناءها، وما بعدها. كان الرجلُ الجاهلي إمّا غازياً لطلب ثأرٍ، وكسب غنيمةٍ، أو مغزوّاً لنفس الأسباب، وفي الحالتينِ لم يبقَ للمرأة إلا المصائبُ. الحروبُ الجاهلية لم تنتهِ بسهولة، فهناك من يُقتلُ فيها، وهناك من يطالبُ بدَم القتلى، حتى لَوْ كان هذا القتيل مِن الغازين، فيطالبُ ذوُوه بِدَمِهِ، وسوف يقتلون القاتلَ، أو أحدَ أقربائه، وتدومُ هذه الحرب، وتدوم معها مصائبُ المرأة. يقول دُرَيْد بن الصّمّة:

يُغارُ علينا واترينَ فيُشتفَى ... بنا إنْ أُصِبنا أو نُغيرُ على وِترِ

بذاك قَسَمْنا الدّهرَ شطرينِ قسمةً ... فما يَنقضي إلّا ونحنُ على شطرِ

(دريد، ٢٠٠٩: ٩٧)

وهذان البيتان هما خيرُ دليل على ديمومةِ الحرب في الجاهلية، والتي تؤدّي إلى مصائبِ المرأة التي لا تنتهي؛ كفقدانِ الزّوج، والأقرباء، والتّرمُّل، ومعالجة الجرحى، واللّطم، والحِداد على القتلى، والسّبي وما فيه من مصائب.

وكانت المرأةُ عورةً لقبيلتها، والمستهدف الأول من قِبَل العدوّ. وهذا يوجبُ على الرّجال أن يُدافعوا عنها بأقوى ما لَدَيهم، لكي لا تُسبى ولا تكون عاراً على القبيلة. فنرَى الكثير من الشعراء يفتخرونَ بقبائلِهم لحفظِهم نسائَهُم، وابتعادِهم لهنّ عن السّبي، والخزي، والعار. يقول عنترة بن شداد في هذا الباب:

وَنَحفَــظُ عَــوْراتِ النِّســاءِ وَنَتَّقــي عَلَــيهِنَّ أَن يَلقــينَ يَومــاً مَخــازِيا

(عنترة، ١٩٩٢: ٢١٦)

ويشاطرهُ الأعشى لأنّ قبيلته استطاعتْ إبعاد النّساء عن الخزي في يوم بُعاثٍ، وقبيلةُ العدوّ لمْ تستطعْ الحفاظَ على نسائِها، حيث قال:

وَإِنّا مَنَعْنــا فِي بُعــاثٍ نِســاءَنا وَمــا مَنَعَــتْ مِــنَ المُخــزِياتِ نِســاءَها

(الأعشى، ١٩٥٠: ٥١)

هذه الأبيات وما شابهها تُبيّنُ مَدَى تأثّر المرأة بالحرب، ومَدَى أهميّتها للرّجال. ضعف الجسد وعدم القدرةِ على الدّفاع عن النّفس يجعل من المرأة عرضةً للسّبي، حيث تُصبح شيئاً، شائتْ أم أبتْ، يجبُ الدفاع عنه والمحافظة عليه، وبالنهاية يجعلها شيئاً يُخرجها عن وضعِها الإنساني.

٣. قبل الحرب

٣-١. كراهية الحرب عند المرأة

لا تحبُّ المرأةُ الجاهلية –ككل إنسان آخر– الحربَ فطرةً، ولكنّها كانت مُكرهةً عليها، وكانت تعلم أنّها الضحية الأولى، والمستهدفة الرئيسة فيها. هي الّتي ستُسبى، أو تُرمّل إن قُتلَ زوجُها، وهي الّتي عليها البكاء، واللّطم، والنّياح، والحِداد بسبب فقدان الأحبّة.

المرأةُ الجاهلية كانت تَرَى نفسها ضحيةً لحروبٍ يبعثُها الرّجال، ومن يتضررُ منها، هي وأولادها، وليس لها إلّا الصبرُ على مصائب يجلبونها لها. تقول إمرأةٌ من بني عامر:

وحــربٍ يَضــجُّ القــومُ مــن بَعَثَاتِهــا ضَــــجيجَ الجِمــــال الــــدّبراتِ

ســـيبعثُها قـــومٌ ويصـــلَى بحرّهـــا بَنُـــو نسْـــوةٍ للثُّكْـــلِ مُصْـــطَبراتِ

(المرزباني، ١٩٩٥: ٨٣)

٣-٢. دوافع المرأة للحث على الحرب

على الرّغم من كراهيتِها للحرب، إلا أنها كانت عنيدةً، ولجوجةً في الحثّ عليها، وبالنظرة الأولى يتبادرُ للأذهان أنّ المرأة كانت تحبُّ الحربَ وتحثُّ عليها، ولكنّ هُناك أسباباً عِدّة تجُرُّ المرأةَ إلى هذا العناد، واللّجاج، منها؛ فقدان الأعزة، ولا سيّما الزوج، والإخوة، والأولاد، ولكي لا تُسبى، وأحياناً من أجل اكتسابِ الغنائم، ودوافع أخرى سنذكُرُها.

٣-٢-١. أخذ الثأر

أحدُ أبرَز دوافع عناد المرأة، وحثّها الرّجال على الحرب، هو أخذ الثّأر، وذلك لعِلمِها بما يُصيبُها جَرّاءَ مقتلِ أحدِ أحبّتها كالزّوج، والأخ مثلاً، وهناك أمثلة كثيرة لنساءٍ عاندنَ وبالغنَ فيه، ككبشة أخت عمرو بن معديكرب الّتي حثّت أهلها لعدم قبول الدية بأبياتٍ تعبّر عنها عن لسان أخيها عبدالله المقتول، وقالت:

وَأَرسَلَ عبدُ اللَّه إذ حانَ يومُهُ ... إلى قَومِهِ لا تَعقِلُوا لَهُم دَمي

وَلا تَأخُذوا مِنهم إِفالاً وأبكراً ... وَأُترَكُ في بيتٍ بصعدةَ مُظلِمِ

(الأصفهاني، ١٩٩٣: ٢٣/١٥)

وهذا العنادُ لا يأتي عن فراغٍ، بل هو نتيجةٌ طبيعية لبيئةٍ كانت ترى أخذ الثأر من الواجبات، ولا يجوز القعودُ عنه، ولو كان صاحبُ الثأر إمرأة.

و هذه هند بنت عتبة، زوجة أبي سفيان، هي الأُخرى الّتي اشتهرت بعنادها، وحثّها الرجال على الحرب لأخذ ثأر أبيها، وأخيها. وارتجزتْ بأبيات كَرمَة بنت الضّلع البكرية التي هي بِدَوْرِها كانت تحثُّ قومَها للثّبات في الحرب، حيث قالت:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقْ ... نَمْشِي عَلَى النَّمَارِقْ

الدُرُّ فِي المَخَانِقْ ... المسكُ في المَفَارِق

إنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقْ ... أوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقْ

(المصدر السابق: ٣٣٨/١٢)

فكما نلاحظ أنّ الشاعرة تعتبر النساء كالنجوم لِعُلوّ مكانتهن ومكانة آبائهن، يلبسن زينتهن من الحُلي والجواهر في أجيادهن، ويتعطرن بالمسك، فتجد ريحه في مفارقهن، ثم تخاطب كرمة البكرية

رجالَ قومها قائلة إن تقبلوا على قتال العدو، فنحن من بعد ذلك لكم محبون معانقون وإن تدبروا وتهربوا وتنهزموا عن لقاء العدو، فسنفارقكم ولن تنالوا منا حبا أو تقديرا.

٣-٢-٢. الانتقام

إنّ كلمة انتقام لها معنى عامة بحيث يمكننا استخدامها لتشمل كلمتي الثأر والقصاص، فالثأر والقصاص نوعان من الانتقام. فبعبارة أخرى إنّ الانتقام هو العقوبة والمبالغة فيها أما الثأر فهو القتل بمن قُتل، وذا يعني أنّ الثأر ضربٌ من الانتقام، وليس كل انتقام ثأراً. فمهما يكن من الأمر فإنّ أحد الأسباب التي جعلَت المرأةَ لا تهدأُ إلا بالحرب وإرَاقةِ الدّماء، هي الانتقام. الانتقام ممّن ظلَمَها، وبسبب ضعف قدرتها الجسمية لم تكنْ تستطيعُ أخْذَ حقّها بيَدها، فلهذا كانت تحثّ الرّجال على الحرب، والقتل لتصلَ إلى مُرادها، ولو قُتلَ في هذه الحرب كثير من الرجال، وتَيَتَّمَ كثيرٌ من الأطفال. ومن اللّائي اشتهرنَ في هذا الموضوع، هي البسوس بنت مُنقذ التميمية.

رَمَى كُليبٌ رئيسُ قبيلة تغلب جَمَلَها، لأنه كان يرعَى في حماهُ، فحثّتْ البسوس ابنَ أختها جساسَ بنَ مُرةٍ، وطالبَتْهُ برفْعِ الظُّلم عنها، وقالت أشعاراً هيّجتْ بها جساساً، فَوَثَبَ، وقتلَ كُليباً، وبعثتْ حرباً دامَ سنينَ طويلة، وسُمّيت بحرب البسوس (شمس الدين، ٢٠٠٢: ٢٥). قالت البسوسُ في مطلع أبياتها:

لَعَمْـرُك لَـو أصـبحتُ في دارِ منقـذٍ لَمـا ضِـيمَ سَـعدٌ وهـوَ جـارٌ لأبيـاتي

وَلكنّـــني أَصـــبحتُ في دارِ غربـــةٍ مَتى يعدُ فيها الـذئبُ يعدُ عَلى شاتي

(البغدادي، ١٩٩٧م: ٢/١٦٧- يموت، ١٩٣٤م: ٩٧)

٣-٢-٣- القِيَمُ العُليا

إحدى القيم العُليا التي كانت المرأة تلتزم بها آنذاك هي الدفاع عن الإجارة والحماية للمستجيرين، فهناك صفيّة الشّيبانية كانت تحثّ على الإجارة والإغاثة حيث أجارت صفيّةُ هندَ بنتَ نعمانَ في حين أنّ ملك إيران آنذاك طلب منها تسليم هندَ إليهم فأبت صفيّة أن تخون فيها الإجارةَ. لم تكنْ الإجارة من واجبات المرأة في ذلك الزمان، وإن لمْ تُجِر لا يلومُها أحدٌ، ولكنّها استطاعت أن تنافس الرجال في هذا المجال، وتتغلّب على كثير منهم، وتُظهر الشجاعة عندما استَوْلَى الخوفُ على الرجال، فحثّتهم، ووقفتْ بأشعار حماسية، ورنّانة، وأحيتْ الإجارةَ الّتي كادت أن تُمحَى، لولا إجارتها لهند بنت النعمان. ومن أشعارها الجميلة التي قالتها في تلك الحرب:

أَحْيُـوا الجِـوَارَ فَقَـدْ أماتَتْـهُ معـاً كـلُّ الْأَعَـارِبِ يا بَـني شـيبانِ
مـا العـذرُ قـد لفّـتْ ثيـابي حُرّةٌ مَغروسـةٌ في الـدّرِ والمرجـانِ

(بموت، ١٩٣٤م: ١١)

٣-٢-٤. كسبُ الغنائم

كان الغزوُ أحدَ طرق الحصول على المعاش في الجاهلية، وكان الطريق المحبّب لَدَى كثير من القبائل لكسب المعاش، لأن من قِبَلِهِ يستولون على غنائم، وهذه الغنائم تساعدُهم على البقاءِ في تلك البيئةِ الخشنةِ المحيطةِ بهم. فوافقتْ المرأةُ الرجلَ على هذه الطريقة، وصارت تحثّ عليها، وبما أن سَبْيَ النّساء كان من غنائم الحروب، والغزوات، فلم تُعارضْه بل حثّت عليه، وظلَمت نفسَها، وأختها من القبائل الأخرى. يقول عمروبن كلثوم في معلقته:

أَخَـذنَ عَلـى بُعـولَتِهِنَّ عَهـداً إذا لاقَـوا كَتائِـبَ مُعلَمينـا
لَتَسـتَلِبُنَّ أفرَاسـاً وبيضـاً و أسْـرَى في الحديـدِ مُقرَّنينـا

(عمرو بن كلثوم، ١٩٩١م: ٨٦)

وهذا يدلّ على أنّ المرأة كانت تُساير الرجال في الحرب بدوافع مشتركة أحياناً. وممّا لا شك فيه أنّ للظروف المعيشية، والبادية، دورا أساسيا في نفس المرأة لمطالبتِها الرجال كهذا الطّلب.

٤- أثناء الحرب

عند ظهور بَوَادِرِ الحرب، تتهيأ المرأة وتمشي مع الرجال، وذلك لأسباب مختلفة. ومن أهمّ أسباب حضور المرأة في الحروب مع الرجال؛ هو الخوف من السّبي، وإطعام الجنود، والجِياد، وأعمال أخرى كمداواةِ الجرحى والسقايةِ، وسنتطرّقُ إليها على حِدة.

٤-١. الخوف من السبي

كانت النّساء تمشي خلف الرجال، لكي لا تُسبى، أو تُهان، وهذا يدلُّ على حضورها المباشر في الحروب. يقول عمرو بن كلثوم:

عَلـى آثارِنا بـيضٌ حِسـانٌ نُحـاذِرُ أَن تُقَسَّـمَ أَو تَهُـونا

(المصدر السابق: ٨٦)

و كان هذا الحضور المباشر يؤثّر مباشرة على نفسيّتها، وعقليّتها فيما بعد الحرب. كانت المرأة ترى بأمّ أعينِها القتلَ، والسّلب، وقساوة القلوب، وكانت تبكي وترتجفُ ممّا ترى. وصفَ الأعشى هذه الحالة في بيتين، حيث قال:

وَظعنُنــا خَلفَنــا كُحــلاً مَــدامِعُها أَكبادُهــا وُجُــفٌ مِمّــا تَــرى تَجِــفُ

حَواسِــرٌ عَــن خُــدودٍ عايَنَــت عِــبَراً وَلاحَهــا وَعَلاهــا غُــبرَةٌ كُسُــفُ

(الأعشى، ١٩٥٠: ٣١١)

٤-٢. الخطابة الحربية

ما تراهُ المرأة في الحروب يكرهها على الحضور وحثّها الرجال على القتال بأشكال مختلفة؛ كإيراد الخطابات وقراءة الأشعار الحماسية و... ، ولأنها كانت تعلم عواقب الهزيمة، وما يحصلُ لها إثرها. والتي اشتهرت من هؤلاء النّساء هي كَرمَة بنت الضّلع البكرية، وصفيّة الشيبانية التي جميع الأشعار المنسوبةِ إليها تتحدّثُ عن الحرب، والثّبات، ودفعِ العدوّ. قالت الهند بنت النعمان عنها:

نَطقَــاءُ لا لِوصــالِ خَــلٍّ نَطقتهــا لا بَــلْ فَصَــاحَتُها العَــوالي تســمَعُ

(يموت، ١٩٣٤: ٢٤)

نعم؛ لا يفهمُ كلامَ صفية إلا الرماح العوالي، ممّا يعني كانت جُلّ أشعارها عن الحرب، والحث عليها.

٤-٣. إطعام الخيل

كان حضور المرأة خلف الرجال في الحرب يُريحُ بالَهم من أن تُسبى، وكانت تساعدُهم في اِطعام الجياد، والمحاربين. يقول عمرو بن كلثوم:

يَقُــتنَ جِيــادَنا وَيَقُلــنَ لَســتُم بُعولَتَنــا إِذا لَم تَمنَعــونا

(عمرو ابن كلثوم، ١٩٩١: ٨٧)

ويشير في بيته هذا إلى اِطعام الخيل، وحثّ المرأة الرجالَ على الحرب، ويُثبتُ خوفهن من السّبي. لبيد بن ربيعة هو الآخر يشيرُ إلى اِطعام الخيل على يدِ النساء، ويقول:

تَقــوتُ أَفراسَــهُم بَنــاتُهُمُ يُزجــونَ أَجمــالَهُم مَــعَ الغَلَــسِ

(لبيد، ١٩٩٣: ٥٩)

٤-٤- في الميدان

وفي بعض الأحيان لا ترى المرأة بُدّاً من الخوض في مُعترَك الحرب والدّفاع عن قبيلتها. على الرّغم من قلّة حضور المرأة كمحاربٍ في الميدان، إلا أنّها شاركت فيها وساعدت الرّجال. جُمل الضَّبابية من هؤلاء النّساء اللّوائي شاركنَ في الحرب، ووَصَفَنها توصيفاً لا يستطيع وصفَهُ غير الّذي لامَسَهُ بجسده، وروحهِ. قالت جُمل عن الحرب:

مَشـــينا شَـــطرَهم وَمشَـــوْا إلَيْنـــا كَمَشـــيِ مُعاجِـــلٍ فيـــهِ زَهُـــوقُ

فَأَلقَينـــا القِســـيَّ وكـــانَ قَـــتلاً وَضـــربَ الهَـــامِ كـــلّاً مـــا يَـــذُوقُ

(يموت، ١٩٣٤: ٨٥)

٤-٥. الأواسي

من الأعمال التي تُحالُ إلى المرأة في الحروب؛ معالجة الجرحى، ومداواتِهم. ولا يقلُّ أثرُهُ على نفسية المرأة عن النظر إلى الحرب عن قريبٍ، أو المشاركة فيها، أو السّبي، أو الترمُّل. لأنّ النظرَ إلى الجروح العميقة، ومعالجتها كان صعباً، ولا يستطيع فعلَهُ إلّا من كان شجاعاً ذا قلب كبير، وجرأة كافية. الأواسيّ هن النّساء اللّائي كنّ يعالجن الجرحي وأحياناً يَصعبُ عليهن هذا العمل:

يَهُـــونُ عَلَـــيَّ أَن تَـــرُدَّ جِراحُـــهُ عُيـــونَ الْأَوَاسِـــي إِذ حَمِـــدْتُ بَلاءَهـــا

(ابن الخطيم، د. ت: ٤٨)

قيسٌ يفتخر بضربته التي أثّرتْ في العدوّ وحينما تنظر الآسيةُ إلى الجرح تُدير وجهها، ولا تستطيع النظر إليه. الإمكانيات الطبية القليلة والبدائية، وكثرة الجرحى في الحروب، وبما أنّ الجرحى كانوا غالباً من الأقرباء، ورجالِ القبيلة، يصعّبُ الأمرَ على الأواسي. وهذا العمل له أثرٌ سلبي على عقلية المرأة، ونفسيّتها بعد الحرب، ولا عَجَبَ أن نراها عنيدةً، وجازمةً في أخذ الثأر من الذين قتلوا، او جَرَحوا رجال قبيلتها.

٥- بعد الحرب

٥-١. الهروب

اذا انهزمت القبيلة، أو فوجئت بغزوة، ما كان للمرأة إلّا الهروب، والنّجاة بنفسها. ولكن إلى أين؟ هل كان مأمنٌ، أو ملجأٌ يُؤويها؟ وما هو مصيرُها بعد الهروب:

صَـــبَحناهُمُ شَـــهباءَ يَـــبرُقُ بَيضُـــها تُبِـــينُ خَلاخيـــلَ النِســـاءِ الهَـــوارِبِ

(ابن الخطيم، د.ت: ٩١)

يبيّنُ لنا الشاعر هنا حال المرأة الهاربة إلى المجهول، المجهول الذي لا يكون أفضل من حالها حين الحرب.

٥-٢. السّبي

كلُّ مصائب الحرب في جانبٍ، ومصائب السّبي في جانب آخرَ. لا يوجدُ شيءٌ أصعبُ، وأمرّ من السّبي، و الأسْر، لِمَا لهُ من سلبياتٍ، ومصائب للمرأة الجاهلية. كان السّبي يساوي الذُّل، والعار الدائم مَدى الحياة، ولا ينتهي هذا الذل بإنتهاء السّبي، بل يبقى معها إلى نهاية حياتها التعيسة. كانت المرأة تضجُّ، وتبكي أشدّ بكاء لخوفها من أن تُسبى وما يصيبُها منه. يقول عنترة بن شداد:

وَتَضِـــجُّ النِســـاءُ مِـــن خيفَـــةِ السَـــب ي وَتَبكـــي عَلـــى الصِّـــغارِ اليَتـــامى

(عنترة، ١٩٩٢م: ١٣٨)

السّبي، وفراق الأطفال، هذه أدنَى مصائب السّبي التي كانا يلحقان بالمرأة، وما ينتظرُها أشدُّ، وأصعبُ. وكان بعض الرجال يأخذون نسائهم ويهربون بهنّ إلى الجبال والقفار لكي لا تُسبى نسائهم ويَمُتْنَ حرائراً، وهم لا يُؤخذون أسارى أيضاً:

حِـــذاراً عَلـــى أَن لا تُنـــالَ مَقـــادَتي وَلا نِســـوَتي حَـــتّى يَمُـــتنَ حَرائِـــرا

(النابغة الذبياني، د.ت: ٨٣)

عند المرأة الجاهلية كان الموت أولى من السبّي. لأنه لا ذُلّ بعد ذُلّ السّبي. وهذا مما قد يجرّها إلى الانتحار:

فَأَنـــتَ الجَـــوادُ وَأَنـــتَ الَّـــذي إِذا مـــا النُفـــوسُ مَـــلأنَ الصُـــدورا

جَـــديرٌ بِطَعنَـــةِ يَـــومِ اللِقـــا ءِ تَضـــرِبُ مِنهـــا النِســـاءُ النُحـــورا

(الأعشى، ١٩٥٠: ٩٩)

يقول الأعشى لممدوحِهِ: ضربتُك حين الحرب تأتي بالنّصر وهذا النّصر يأتي بنساءٍ سيُؤخذن سبايا، وجديرٌ بهنّ أن يضربن نحورهنّ بدلاً من أن يُسبينَ. والصحيح أن هذا ما كان يحدث. لأنّ السّبي عار ليس فوقهُ عاراً، ولو كانت المسبيّةُ معززةً مكرّمةً عند آسِرها. ونرى أنّ بعض السّبايا بقينَ مترصداتٍ لفرصة في حياتهنّ لكي يهرُبنَ ويرجِعنَ إلى قبيلتهنّ مهما كلّف الأمر. ومن بين

تلك النّساء اللّائي هربنَ ورجعن إلى قبيلتهنّ، هي زوجة عروة بن الورد، وبعدما ولَدتْ له سبعةَ اولاد، عمِلتْ حيلةً ورجعت إلى قبيلتها، وبقيَ عروة يتحدث عنها بحسرة ويقول:

تَحِــنُّ إلى سَــلمى بِحُــرٍّ بِــلادِهــا وَأَنــتَ عَلَيهــا بِالمَــلا كُنــتَ أَقــدَرا

(عروة ابن الورد، ١٩٨٩م: ٦٥)

٥-٣. السوق إلى المجهول

لا توجد للمرأة أمرّ، وأصعبُ من اللّحظات التي تُساق بها إلى مصيرها المجهول. في تلك السّاعات المريرة لا يوجد لها عونٌ إلا عدوّها، وهو الذي أسَرَها، وهو الذي سيظلِمُها. فتجدُ نفسَها مُجبرةً على الاستعانة به ليرحمَها بشربةٍ من الماء لأطفالها:

يُوَصّــــينَ الــــرُواةَ إذا أَلَمّــــوا بِشُــعثٍ مُكــرَهينَ عَلــى الفِطــامِ

(النابغة الذبياني، د.ت: ١٧٧)

وخيرُ من وصَفَ من النّساء هذه السّاعات، هي الفارعة بنت شداد الخزاعية:

ألامتْ سُليمٌ في السّياق وأفْحَشَتْ وأفْــرَطَ في الســوق العَنيــف إسَــارَها

لعــل فتــاة مــنهم أن يســوقها فــوارس منــا وهــي باد شــوارها

(يموت، ١٩٣٤: ٨٨)

تقول فارعة: أنّ قبيلة سُليْم ساقُوهنّ بعُنفٍ، وأفحَشوا في الكلام، وتأملُ أن يحدثَ لنسائهم ما حدثَ لها. وهذه الأُمنية دليلٌ واضح على الظّلم الحاصل للمرأة، ولم تكن فارعةُ هي الوحيدة في هذا المصير، بل هناك الكثير من النّساء اللّائي ستَجلِبُ لهنّ الحروب هذا المصير المحتوم، والمرّ. وتتابعُ في شعرِها ما تتمنّى، وتقول:

ألَا ليْتَ شِعرِي هلْ أَرَى الخيلَ شُزباً تُثــيرُ عجاجــاً مُســتطيراً غبارَهــا

فتَرْقَــا عيــونٌ بعــدَ طــولِ بكائهــا ويغســلُ مــا قــد كــانَ بالأمــسِ عارَهــا

(يموت، ١٩٣٤: ٨٨)

تعتقد فارعة أن السّبي عارٌ، ويجب على الرجال أن يأتوا، ويحرروها من هذا العار، وتكفّ عيونها من البكاء المستمر الذي لازمَها لمدةٍ طويلة.

٥-٤. السبي فخر عند الرجال

و ما كان للنّساء مصيبةً، فهو عند كثير من الرجال عامل فخرٍ، واعتزازٍ، لا سيّما الذين حَصَلوا على غنيمتهم من الحروب وسَبَوْا بعض النساء. وكم من هؤلاء افتخروا بأنفسهم، او بقومهم لسَبْيِهِم النّساء، ومنهم عروة بن الورد، حيث يفتخر بقومه أن أخذوا إمرأة، وكانت عذراءَ:

إن تَأخُذوا أَسماءَ مَوقِفَ ساعَةٍ فَمَأخَذُ لَيلى وَهيَ عَذراءُ أَعجَبُ

(عروة ابن الورد، ١٩٨٩: ٤٧)

وهذا البيت أيضاً يدلُّ على أن قبيلة عروة استطاعوا أن يحرّروا مسبيتهم بأسرع ما يكون، لكي لا تكون عاراً عليهم. ويبيّنُ لنا لبيد بن ربيعة عظمة المصيبة عندما يذكر أنّ قومَه نقلوا السبايا أفواجاً، كما نقلوا الغنائم الأخرى:

نَقَلنا سَبيَهُم صِرماً فَصِرماً إِلَى صِرمٍ كَما نُقِلَ النَصيبُ

(لبيد، ١٩٩٣م: ٣٧)

لو كانت السّبايا أفواجاً كما يقول لبيدٌ في حرب واحدة، فكم من النّساء كانت تُسبى في تلك الحروب البغيضة. ولا يقلُّ فخراً، واعتزازاً عنه الحارثُ بن حلّزة حين يأتي على ذكر النساء التي سُبيتْ بأيدي قومه:

ثُمَّ مِلنا عَلى تَميمٍ فَأَحرَمْ نا وَفينا بَناتُ مُرٍّ إِماءُ

(الحارث، ١٩٩٤: ٦٩)

وأيضاً يصف عبيد بن الأبرص النساء الجميلات التي سبوهن كالدُّمى:

وَأَوانِسٍ مِثلِ الدُمى حورِ العُيونِ قَدِ استبينا

(عبيد ابن الأبرص، ١٩٩٤: ١٢٠)

الأبيات هذه إن دلّت على شيءٍ إنما تدلّ على عظمةِ المصيبة، وكثرةِ السّبايا. الكثرة التى لا جَرَمَ ستَجُرُّ معَها مصائب أُخرى؛ كالحِقد، والكراهية، والحقارة، وتضييع الحقوق، وأولاد بلا آباء، و. . . ، المشاكل التي كانت تنخرُ بالمجتمع الجاهلي برمّته.

وعلى الرّغم من هذا كلّه كان هناك من يفتخرون بأنفسِهم، او يمدحونَ ممدوحهم، أنهم فكّوا أسْرَ بعض هؤلاء النّساء، وأرجعوهنّ إلى قبائلهنّ، وفي الحقيقة أظهروا لنا أنّ الضّمير الإنساني لم يمُتْ تماماً في الجاهلية، بل كان حيّاً عند البعض. فنَرَى الأعشى يمدح أحدَ رجال قبيلته لوساطته، واستشفاعِهِ لفكّ سبايا بني شيبان في يوم أُوَارة من الأسْر، ويقول:

وَمِنّـا الَّـذي أَعطـاهُ في الجَمـعِ رَبُّـهُ عَلَـى فاقَـةٍ وَلِلمُلـوكِ هِباتُهـا
سَـبايا بَـني شَـيبانَ يَـومَ أُوارَةٍ عَلـى النـارِ إِذ تُجلـى لَـهُ فَتَياتُهـا

(الأعشى، ١٩٥٠: ٨٧)

وكذلك دُريد بن الصمة مدح ممدوحه لردّ السبايا إلى أهلهن من غير سوء أصابهن، وقال في بيت:

وَرَدَّ النِسـاءَ بِأَطهارِهـا وَلَـو كـانَ غَـيرُ يَزيـدٍ فَضَـح

(الأصفهاني، ١٩٥٢: ٣٨/١٠)

٥-٥. العضاريط

لا تنحصر مصائب المرأة الجاهلية بالسّبّ، والضّرب، بل هناك مصيبة أعظم قلّ ما تحدّث عنه المؤرخون، او المحلّلون لتلك الحقبة الزمنية، وهي العضاريط كرجال يعملون، ويحاربون للقبائل التي تستعملهم مقابل الطعام. وواجبِهم -عند انتهاء الحرب- مراقبةَ السّبايا والحفاظَ عليهنّ. (ابن منظور، ٢٠٠٥م: ٢٦٥٨/٣)

كيف تكون حالُ الرجل الذي يعرض نفسَهُ للهلاك من أجل الطّعام، بعد ما تنتهي الحرب وتصبح النّساء أسيرات بيده؟ من يحفظُ النّساء أمام هذا الرجل الجائع للطّعام والشّهوة؟ هل يرحمهنّ؟

الأبيات الّتي تذكر هؤلاء العضاريط قليلة، ولكنّ رَغمَ قلّتها تبينُ لنا فضاعَتَهم، وما كانوا يُمارسونَهُ بحقّ السّبايا. كانت النّساء تُساقُ والذي يقودهنّ هم العضاريط، وهذا يسبّبُ للنّساء خوفاً شديداً، بحيث يجعلهنّ دائمَ الخوف، والحَذَر:

يَنظُرنَ شَزراً إِلى مَن جاءَ عَن عُرُضٍ بِأَوجُـهٍ مُنكِـراتِ الـرِقِّ أَحـرارِ
خَلـفَ العَضـاريطِ لا يـوقَينَ فاحِشَـةً مُستَمسِـكاتٍ بِأَقتـابٍ وَأَكـوارِ

(النابغة الذبياني، د.ت: ١٠٩)

وكما نفهمُ من هذا البيت، لا يوجد لَدَى النّساء شيءٌ يحميهنّ من هؤلاء إلا تمسّكهنّ بأقتابِ وأكوارِ الجِمال. وكانوا يعتدَونَ على هؤلاء السّبايا. سُويدُ ابن ابي كاهِل يذكرُ اعتداءَاتهم ويقول:

ظَلَلْـنَ يُنـازِعنَ العَضـاريطَ أُزرَهـا وَشَـيبانُ وَسْـطَ القُطقُطانَـةِ حُضَـرُ

(الأصفهاني، ١٩٥٢: ١٠٦/١٣)

ومن الأمثلةِ الأخرى لاعتداءاتهم على النّساء هي التي يتحدّثُ عنها زيدُ الخيل الطائي. عندما أخذَ لقيطُ بن حازمٍ السّبايا أُجبرنَ على مُلاعبةِ العضاريط. حيث قال زيد:

تُلاعِبُ وَحدانَ العَضاريطِ بَعدَما جَلاها بِسَهمَيْهِ لَقيطُ بنُ حازِمِ

(الأصفهاني، ١٩٩٣: ٢٦١/١٧)

أيُّ مصيبةٍ كانت هذه الحروب؟ وكيف يتعجّب المرءُ عند سَمَاعِهِ "أنّ امرأةً انتحرتْ خوفاً من السّبي". وهل يوجد شئ أفضع من السّبي؟ فيا لَها من حياة، ويا لَها من امرأة استطاعت البقاءَ في هذه الحياة.

٥-٦. الاعتداء

لم تكن الاعتداءات من جانب العضاريط فقط، بل هناك من مدحَهُم الشعراءُ لإعتدائهم على السَبايا، والظّاهرُ أنّهم من رؤساء القبائل. فهذا الأعشى يمدح أحدهم، ويقول:

وَمَنكوحَةٍ غَيرِ مَمهورَةٍ وَأُخرى يُقالُ لَهُ فادِها

(الأعشى، ١٩٥٠: ٧٥)

أي مسبية موطوءة بغير عقد ولا مهر بدلالة ورود لفظ (منكوحة) مقابلا للفظ (غير ممهورة). (يحيى الحيالي، ٢٠٠٥، ١٠١) فيمدحُهُ الأعشى لأنّهُ اعتدَى على أسيرة، ومن غير مهرٍ. ويلتمسونه لقبول الفدية لفكّ أسْر نساءٍ أُخَر لديْه. وهناك من الأشراف من مدح هذه الظاهرة، وهو حاتم الطائي. حيثُ يفتخرُ بقبيلته أنّهم أنكحوا نساءً بالقوة، والسّيف. ولا شكّ أنه يشير إلى السّبايا التي استطاعت قبيلته أن تسبيهنّ من قبيلة أُخرى، ويقولها شعراً:

وما أنكحونا طائعين بناتِهُم ولكن خطبناهُم بأسْيافنا قسرا

(الطائي، ١٩٩٤: ١٣٢- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ١٩٨٣: ٢٩٧/٣)

٥-٧. الإهداء

تكفي إحدى هذه المصائب التي ذُكرتْ لإخراج المرأة عن طوْرِها الإنساني، وما ينتظرها بعد السّبي لا يقلُّ صعوبةً، وفضاعةً عن السّبي نفسه، وهو المصير المجهول؛ الذي ينتهي أحياناً بإهداءها رغماً عنها، وتُصبح أمَةً إلى ما لا نهاية، إن لم يستطعْ رجال قبيلتها إنقاذَها.

كيف ننتظر من هذه المرأة، أن تكون إنسانا ذات عواطف، و مشاعر رقيقةٍ، وهي تُهدى، وتُباع في الأسواق كالأموال، والحيوانات؟ والعجيب أنّ بعض الشعراء مدحوا الذين أهدوا النّساء رغماً عنهنّ ويقول:

فَأَينَ الَّذي قد كانَ يُعطي جِيادَهُ بِأَرسانِهِنَّ وَالحِسانَ الحَواليا

(زهير، ٢٠٠٤، ٢١٠)

فكانوا يستعملونهنّ في الغناء، واذا شاؤوا يَهبُونهنّ إلى من يريدون:

هُــوَ الواهِــبُ المُســمِعاتِ الشُــرو ... بَ بَــينَ الحَريــرِ وَبَــينَ الكَــتَن

(الأعشى، ١٩٥٠: ٢١)

وأحياناً يهْدُوهنّ بَدَلاً من المال إلى من يمدحهم، وبالمقابل يحصلون على مدح الظّأم للظّأم:

وَأَمتَعَــني عَلــى العَشــا بِوَليــدَةٍ ... فَأُبــتُ بِخَــيرٍ مِنــكِ يا هَــوذُ حامِــدا

(الأعشى، ١٩٥٠: ٦٥)

النابغة الذبياني الذي يهرُبُ بنسائه إلى الجبال لكي لا يذهبنَ سبايا يمدح ممدوحه لهذا العمل الشّنيع ويقول:

الواهــبُ المِئَــةَ المِعكــاء زيّنهــا ... ســعدانُ توضــحَ في أوبارِهــا اللّبــدِ

و الســاحبات ذيــول الــريط فتّقهــا ... بــرد الهــوجر، كــالغزلان بالجــرد

(النابغة الذبياني، د.ت: ٥٣و٥٤)

٥-٨. الأرامل

و ممّا تجُرّهُ الحرب للمرأة الجاهلية، هو الترمّل. مِن الأرامل من ذهبت مسبية، ومنهنّ مَنْ بقيت في قبيلتها. التي بقِيَتْ في قبيلتها عليها النّياح، واللّطم، والحِداد الأليم، وإعالةِ الأيتام. وأمّا التي سُبيتْ فمصيبتها مضاعفة. فهي تمشي للسّبي مع أنّها أرملة، وفاقدة لأطفالها، وجائعة. ويصف لنا عمرو الباهلي هذا الصنف من السّبايا، ويقول:

تُمشّــى بأَكْنــافِ البَلــيخِ نِســاؤُنا ... أَرامِــلَ يَسْــتَطْعِمْنَ بالكَــف والفَــمِ

(ابن قتيبه، د. ت: ٣٥٨/١)

وهناك صنفٌ من هؤلاء الأرامل، وهنّ اللّائي قد أُسِرَ ازواجهنّ، والسّنَد الوحيد لهنّ في تلك الحياة الصعبة في البادية. عندما كان عديُّ بنُ زيد مسجوناً عند الملك وصف لنا حال نسائه، وقال:

وبيــــتي مُقْفِــــرٌ إلاَّ نِســــاءً ... أرامِــلَ قــد هَلَكــنَ مِــنَ النَّحيــبِ

يُبــادرنَ الــدُّموعَ علــى عَــدي ... كَشــن خانَــهُ خَــرزُ الرَّبيــبِ

(الأصفهاني، ١٩٥٢: ١١٢/٢)

بالطّبع لم تكنْ حال هذه النساء بأحسن من اخواتهنّ إلا أنّ لديهنّ أمل برجوع أزواجهنّ، والتخلّص من بعض مصائب المعيشة.

٥-٩. النياح، والحداد، والندب

ما يبقى للمرأة بعد الحرب ليس إلا المصائب التي تتوالى عليها. ومن جملة هذه المصائب هي مصيبة الحِداد، والنّياح، والنّدب. عندما يُقتل أحد الرجال، على النّساء أن ينعَيْنَهُ، و يندُبْنَهُ، ويلطِمنَ لفقدِهِ، و يحِدنَ عليه. والظّاهر أن الرجال كانوا يحبونَ هذه الأعمال، ويحثّون عليها، وكان بعضهم يحبُّ أن يسمع ما تقوله عنه النّساء بعد مقتله، قبل أن يُقتل؛ منهم السموأل الذي يقول:

يا لَيتَ شِعري حينَ أُندَبُ هالِكاً ماذا تُؤَبِّنُني بِهِ أَنواحي

(السموأل، ١٩٩٧: ٨٦)

والبعض منهم يوصي النساء أن ينعينَهُ بما يستحق، ويشقّقنَ جيوبهنّ لفقدانه. طرفة بن العبد من هؤلاء الرجال الذي يوصي ابنة اخيه، ويقول:

فإنْ مُتُّ فانْعيني بما انا أهلهُ وشُقّي عليّ الجَيْبَ يا ابنةَ معبدِ

(طرفة، ٢٠٠٢: ٢٩)

عنترة بن شداد بسبب حضوره المستمر في الحروب، كأنه لا يسمع إلا صوت ضربات السيوف، والنوائح، ويذكر هذا الموضوع في كثير من أشعاره. يقول في أحد أبياته:

وَأَصبَحَت نِساؤُها نَواديِاً عَلى رِجالٍ تَشتَكي نِزاعَها

(عنترة، ١٩٩٢: ٩١)

هو يفتخر بقومه لجعلهم نساء العدوّ ينحنَ، ويلطمنَ خدودهن، حيث قال:

وَخَلَّينا نِسائَهُمُ حَيارى قُبَيلَ الصُبحِ يَلطِمنَ الخُدودا

(المصدر السابق: ٥٥)

ويهدّدُ عدوة بأن يجعل النساء يندبنهُ حزناً، لأنه سيقتله، ويقول:

وَحَولَكَ نِسوَةٌ يَندُبنَ حُزناً وَيَهتِكنَ البَراقِعَ وَاللِفاعا

(المصدر السابق: ٩٠)

وهناك أبيات تدلُّ على أن هذه المآتم، والمشاركة فيها من واجبات المرأة، وعليها أن لا تتأخّر عنها. يحثّ لبيد بن ربيعة النساء للمشاركة في هذه المراسم، ويقول:

قوما تَجوبانِ مَعَ الأَنواحِ

في مَـــــــأتَمٍ مُهَجِّـــــــــرِ الـــــــــرَواحِ

يَخمِشـــــــنَ حُـــــــرَّ أَوجُـــــــهٍ صِـــــــحاحِ

(لبيد، ١٩٩٣: ٥٩)

وفي بيت آخر يطلب من ابنة أخيه المشاركة في المناحة المعمولة لأخيه المقتول، ويقول:

يا مَـــيَّ قُـــومي في المَـــآتِمِ وَانـــدُبي فَـــتىً كـــانَ مِمَّـــن يَبتَـــني المجـــدَ أَروَعـــا

(المصدر السابق: ١٠٦)

ودائماً ما تكون هذه المآتم ممزوجةً بأعمال لا يستطيع فعلَها إلا المرأة الجاهلية، ومنها تحليق الرأس، والضّرب بالنّعلين على الوجه، والجلد. نرى الخنساء تقول:

وَلَكِـــنّي وَجَـــدتُ الصَـــبرَ خَـــيراً مِـــنَ النَعلَـــينِ وَالـــرَأسِ الحَليـــقِ

(عفيفي، د. ت: ١٠٣)

كما يقول ساعدةُ بنُ جُؤيَة:

فَقامَـتْ بِسَـبتٍ يَلعَـجُ الجِلـدَ وَقعُـهُ يُقَـــبِّضُ أَحشـــاءَ الفُـــؤادِ أَلـــيمُ

وَخَـــرَّت تَلـــيلاً لِليَـــدَينِ وَنَعلُهـــا مِـــنَ الضَـــربِ قَطعـــاءُ القِبـــالِ خَـــذيمُ

(الهذليين، ١٩٩٥: ٢٣٣/١ و٢٣٤)

و هو يشير إلى امرأة وصلها خبر مقتل ولدها، فبدأت تضرب نفسها بنعلها، وبعد لحظات أتاها الخبر اليقين، على أن ولدها حيّ، ولم يُقتل، فسقطت على الأرض وكان النّعلُ قد تقطّع.

٦- النتيجة

ألقت هذه المقالةُ الضوءَ على أثر ويلات الحرب على المرأة في الشعر الجاهلي فاستخلصت إلى تقسيم هذه الأشعار في ثلاث مراحل؛ قبل الحرب، وأثنائها، وبعدها والآثار التي تُخلّفُها هذه الحروب على حياة المرأة المعيشية، والنفسية، والعقلانية. فإنّ كثرة الحروب القبلية هي حقيقة لا تُنكر، والآثار التي تتركها هذه الحروب على جميع جوانب حياة المرأة، هي حقيقة لا يمكن إغفالها. كان المجتمع الجاهلي بحدّ ذاته ظالماً للمرأة بأشكال مختلفة، وأهم هذه الأشكال هي الحروب القبلية الكارثية التي لا تجرّ معها للمرأة إلّا المصائب. كان العربي يدافع عن النساء لا لأنّهنّ بشرٌ ويستحق الدفاع عنه، بل لأنّهن بعض أموالهم، وفي حال سبيهنّ على يد الأعداء، يرى أنّ ماله قد سُرقَ، فعليه أن يستعيد ماله الذي سُرق منه، ولهذا يحاول بشتّى الطرق أن يَسبي نساء الآخرين،

ويفخر بنفسه إن استطاع فعل ذلك، ويفخر في شعره، أنّه استطاع وغريمه لم يَستطع هذا الفعل. وبما أنّ عَجَلَة الدهر لا تُبقي القوة دائمةً في قبيلةٍ، فعند ضعفها تُصبح غرضاً، وهدفاً لباقي القبائل، وهكذا تتداول الأيام بينهم، فيوماً يُغيرون، ويَنهبون، ويَسبون، وفي آخرَ يُغار عليهم، ويُنهَبون، وتُسبى نسائهم، وفي جميع الأحوال يبقى المتضرّر والخاسر الوحيد من تلك الحروب هي المرأة التي لم تساعد نفسها في التخلّص من تلك المصائب بحثّها زوجها، وأولادها لحياةٍ أفضل بدلاً من حثّها على الحروب والانتقام. وما علينا اليوم إلّا أن نعتبر بحياة المرأة الجاهلية، ونصون أنفسنا، ونسائنا من مثل هذه الحروب، والمصائب، والتي لم تكن قليلةً في عصرنا هذا، ولو تغيّرت الأساليب، والأسماء.

المصادر

ابن الخطيم، قيس (د. ت.)، الديوان، تحقيق ناصرالدين الأسد، لبنان: دار صادر.

ابن عبدربه، احمد بن محمد (١٩٨٣)، العقد الفريد، تحقيق عبدالمجيد الترحيني، لبنان: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى.

ابن قتيبه، ابي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبه الدينوري، الشعر والشعراء، تحقيق احمد محمد شاكر، لبنان: دار المعارف، د. ت.

ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (د. ت.)، لسان العرب، مؤسسة الأعلميللمطبوعات، د.م: الطبعة الأولى.

الأصفهاني، ابو الفرج (١٩٩٣)، الأغاني، المجلد ١٤-١ مصر: دار الكتب المصرية، المجلد ٢٤-١٥ لبنان: الهيئة العامة للكتاب.

الأعشى، ميمون ابن قيس (١٩٥٠)، الديوان، تجميع محمد حسين، د.م: د.ن.

البغدادي، عبدالقادر بن عمر (٢٠٠٠-١٩٩٧)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة.

بنت الشاطئ، الخنساء (١٩٦٣)، نوابغ الفكر العربي، لبنان: دارالمعارف، الطبعة الثانية.

جاد المولى، محم أحمد؛ وعلي محمد البجاوي؛ ومحمد أبوالفضل إبراهيم (١٩٤٢)، أيام العرب في الجاهلية. لامک: عيسى البابي الحلبي.

الجوزية، ابن قيم (١٩٨٢)، أخبارالنساء، تحقيق نزار رضا، بيروت: دار مكتبة الحياة.

الحارث، ابن حلّزة (١٩٩٤)، الديوان، تحقيق مروان العطية، دمشق: دار الإمام النوويّ.

دريد، ابن الصمّة (٢٠٠٩)، الديوان. تحقيق الدكتور عمر عبد الرسول، القاهرة: دارالمعارف.

زهير، ابن أبي سُلمى (٢٠٠٤)، الديوان، تجميع ابي العباس ثعلب، لبنان: دار الكتاب العربي.

سَمْوأل، بن عادِيا (۱۹۹۷)، الديوان، شرح عمر فاروق الطباع، بيروت: دار الأرقم.
شمس الدين، ابراهيم (۲۰۰۲)، مجموع أيام العرب في الجاهلية والإسلام، بيروت: دارالكتب العلمية، الطبعة الأولى.
صالح موسى درادكة (۱۰۴۶). الحرب عند القبائل العربية في الجاهلية، «مجلة المؤرخ العربي»، بغداد، العدد ۲۹ (صص ۱۱۴-۱۲۹)
الطائي، حاتم (۱۹۹۴)، الديوان، شرح ابي صالح يحيى بن مدرك الطائي، تقديم حنا نصرالحتي، لبنان: دارالكتاب العربي، الطبعة الأولى.
طرفة، ابن العبد (۲۰۰۲)، الديوان، شرح مهدي ناصرالدين، لبنان: دارالكتب العلمية، الطبعة الثالثة.
عبيد، ابن الأبرص (۱۹۹۴)، الديوان، شرح احمد عدرة، لبنان: دارالكتاب العربي، الطبعة الأولى.
عروة، ابن الورد (۱۹۸۹)، ديوان أميرالصعاليك، شرحه أبوبكر محمد، لبنان: دار الكتب العلمية.
العفيفي، عبدالله (د.ت)، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، مصر: المكتبة التجارية، ، د.ت.
عمرو ابن كلثوم (۱۹۹۱)، الديوان، تحقيق إميل بديع ايوب، لبنان: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى.
عنترة، ابن شداد (۱۹۹۲)، الديوان، شرح الخطيب التبريزي، د.م: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى.
لبيد، ابن ربيعة (۱۹۹۳)، الديوان، شرح الطوسي، تقديم حنا نصرالحتي، لبنان: دارالكتاب العربي، الطبعة الأولى.
محمد الناصر (۱۴۰۶)، الحروب في الجاهلية، «مجلة البيان»، لندن.
المرزباني، أبي عبيدالله محمد بن عمران (۱۹۹۵)، أشعار النساء، تحقيق سامي مكي العاني وهلال ناجي، لبنان: عالم الكتب، الطبعة الأولى.
النابغة الذبياني (د.ت)، الديوان، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم، القاهرة: دارالمعارف، الطبعة الثانية، د.ت.
الهذليين (۱۹۹۵)، الديوان، القاهرة: دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية.
الوداعي، محمد بن مهاوش بن مسفر (۱۴۱۹)، يوم الرزم آخر أيام العرب في الجاهلية. «مجلة العرب»، الرياض، السنة الثالثة و الثلاثون، ربيع الأول و الثانى- صص ۶۹۵ - ۷۰۱.
يحيى الحيالي، عماد عبد (۲۰۰۵)، المجالات الدلالية لألفاظ الصلات الجنسية في القرآن الكريم، جامعة الموصل/ كلية الآداب، «مجلة أبحاث»، المجلد۲، العدد۲.
يموت، بشير (۱۹۳۴)، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، القاهرة: المكتبة الأهلية، الطبعة الأولى.

References

Ibn al-Khatim, Qais, Al-Diwan (Undated). ed. by Nasser al-Assad, Lebanon: Dar Sader. [In Arabic]

Ibn Abd Rabah, Ahmed bin Mohammad, *al-ʿIqd al-Farīd* (*The Unique Necklace*), ed. by Abdul Majid Al-Tarhini (1983). Lebanon: Dar Al-Kuttab Al-Ilmiyah, First Edition. [In Arabic]

Ibn Qutaibah, Abi Muhammad Abdullah bin Muslim bin Quteibah al-Dinvari (Undated). Poetry and Poets, ed. by Ahmad Mohammed Shakir, Lebanon: Dar al-Maaref. [In Arabic]

Ibn Manzoor, Abi al-Fadl Jamal al-Din Muhammad ibn Makram (2005). Lisan al-'Arab, al-Alami for Printing, First Edition. [In Arabic]

Al-Isfahani, Abu Al-Faraj, al-Aghani (1994). Volume 14-1 Egypt: The Egyptian Book House, 1952-1928, Volume 24-15 Lebanon: General Book Authority. [In Arabic]

Al-A'sha, Maimon Ibn Qais (1950). Al-Diwan, Compilation of Muhammad Hussein,

Al-Baghdadi, Abdul Qadir bin Omar, Khizanah al-Adab and Lob-Lobab lisan al-Arab (2000). ed. By Abdul Salam Mohammed Harun, Cairo: Library of al-Khanji, fourth edition. [In Arabic]

Bint al-Shati, Al-Khansaa (1963). Navabiq al-Fikr al-Arabi: Dar Al-Ma'arif, Second Edition. [In Arabic]

Jad al-Mawla, Muhammad Ahmad; Ali Muhammad al-Bagawi; and Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim (1942). the days of the Arabs in the Jaahiliyyah. Lamak: Issa al-Babi al-Halabi. [In Arabic]

Al-Jawziyya, Ibn Qayyim (1982). Women's News, ed. By Nizar Riza, Beirut: Darmaktaba al-Hayat. [In Arabic]

Al-Harith, Ibn Helilza (1994). Al-Diwan, Marwan Al-Attiyah, Damascus: Dar al-Imam al-Nawawi. [In Arabic]

Duraid, Ibn Simmah (2009). SAI. Dr. Omar Abdel Rasoul, Cairo: Dar Al-Maarif.

Zuhair, Ibn Abi Salma (2004). Al-Diwan, Collection of Abi Al-Abbas Thalab, Lebanon: Dar Al-Kitab Al-Arabi. [In Arabic]

Samuel, Bin Adiya (1997). Al-Diwan, Sharh Omar Farouq al-Tiba, Beirut: Dar Al-Arqam. [In Arabic]

Shams al-Din, Ibrahim (2002). The Total of Arab Wars in Jahiliyya and Islam, Beirut: Dar al-Kotob Al-Ilmiyah, First Edition. [In Arabic]

Shams al-Din. The War of the Arab Tribes in Jahiliyya, Journal of the Arab Historian, Baghdad, No. 29 (pp. 114-129). [In Arabic]

Al-Taei, Hatim (1994). Al-Diwan, ed. by Abi Salih Yahya Bin Madrek Al-Taei, Introduction of Hanna Nasrhalti, Lebanon: Dar Al-Kitab al-Arabi, first edition.

Tarfa, Ibn al-Abd (2002). Al-Diwan, Ed. by Mahdi Nasir al-Din, Lebanon: Dar al-Kotob al-Ilmiyah, third edition. [In Arabic]

Obeid, Ibn al-Abras (1994). Al-Diwan, ed. by Ahmad Adra, Lebanon: Dar al-Kitab al-Arabi, first edition. [In Arabic]

Orvah, Ibn al-Ward (1986). Al-Diwan Amir al-Saalik. ed. By Abu bakr Muhammad, Lebanon: Scientific Book House. [In Arabic]

Al-Afifi, Abdullah(Undated). Arab Women in Jahiliyya and Islam, Egypt: The Commercial Library. [In Arabic]

Amr Ibn Kolthoum (1991). Al-Diwan, Emil Badi Ayyoub, Lebanon: Dar al-Kitab al-Arabi, first edition. [In Arabic]

Antara, Ibn Shaddad (1992). Al-Diwan, Sharh al-Khatib al-Tabrizi, Dar al-Kitab al-Arabi, first edition. [In Arabic]

Labeed, Ibn Rabia (1993). Al-Diwan, Sharh Al-Tusi, Presentation by Hana Nasrhalti, Lebanon: Dar Al-Kitab Al-Arabi, First Edition. [In Arabic]

Muhammad al-Naser, (1958). Wars in the al-Jaahiliyyah, Al-Bayan Magazine, London. [In Arabic]

Al-Marzabani, Abi Obeidullah Mohammad Bin Imran (1995). Women's Poetry, ed. By Sami Makki Al-Ani and Hilal Naji, Lebanon: World of Books, First Edition. [In Arabic]

Al-Nabighah Al-dhabyani (Undated). Al-Diwan, Investigation of Muhammad Abul-Fadl Ibrahim, Cairo: Dar Al-Ma'aref, Second Edition. [In Arabic]

Al-Hadhlyin (1995). Al-Diwan, Cairo: Egyptian Book House, second edition.

Al-Vadaei, Muhammad bin Mahavesh bin Misfar, Yaom al-Razm (1998). last days of Arabs in al-Jahiliyah. "Al-Arab Magazine", Riyadh, Thirty-third Year. [In Arabic]

Yahya Al-Hayali, Imad Abd (2005). al-Majalat al-Dilaliyah lialfaz al-Silat al-Jinsiyah in the Holy Quran, Mosul University / Faculty of Arts, Journal of Research, Volume 2, No. 2. [In Arabic]

Yamout, Bashir (1934). The Poets of Arabs in al-Jahiliyya and Islam, Cairo: The National Library, First Edition. [In Arabic]